Dawlaty
Rue Ducale 41
1000 Bruxelles
Belgium
info@dawlaty.org
www.dawlaty.org

دمشق 21 تشرين الثاني 2021

تعب...

في الحافلة المتهالكة المتجهة نحو حي في غرب المدينة، نجلس أربعة عشر امرأة، والحقيقة أننا ومنذ خروج الحافلة من المحطة الرئيسية استسلمنا للنوم، للنعاس المتراكم، كنا عاجزات عن قص حكاية مسلية، أو تبادل شكوى محددة، عاجزات حتى عن رد تحية الصباح، دفعنا للسائق أجرة الرحلة، واستسلمنا للطريق.

بعد أزمة المحروقات الحادة وارتفاع أسعارها وتهالك الحافلات وخروج عدد كبير منها من العمل لعجزها عن تأمين دخل يكفي افواه أفراد عائلات مالكيها أو سائقيها، بات علينا الخروج في الخامسة صباحا من بيوتنا المترامية في أحياء المدينة لنصل إلى البيوت التي نعمل بها قبل الثامنة، أما أنا فيتوجب علي الوصول قبل السابعة والنصف, وهو موعد مغادرة المرافقة الليلية للسيدة المسنة والمريضة التي أعمل على خدمتها يوميا حتى الثامنة مساء.

إنها الحافلة الثالثة التي نستقلها للوصول إلى أعمالنا، سبع عاملات منزليات في تنظيف البيوت، ثلاث طباخات، مستخدمة في روضة خاصة، عاملة في تزيين قوالب الكاتو في إحدى ورشات صناعة الحلوى، أنا وسيدة تزور يوميا زوجها المريض في مستشفى لجراحة القلب.

سنستقل ثلاث حافلات أخرى عند العودة، لن نجد مقاعد حينها، سنجلس على مقاعد حديدية جانبية ضيقة، وربما نجلس مقرفصات في ممر الحافلة الضيق قريبات جدا وربما ملاصقات لأقدام باقي الركاب.

صوت رنين متقطع يكسر نومنا الهش، جوال إحداهن يرن، ابنتها تبكي على الطرف الآخر، أمي صدريتي غير مكوية، تقسم السيدة لطفلتها بأن الكهرباء كانت مقطوعة طوال الليل، لكن الطفلة تواصل البكاء، سيضحك عليّ زملائي، ستتهمني المعلمة بقلة الترتيب، تبكي الأم، تقول لطفلتها: لا تروحي ع المدرسة اليوم، تصرخ الطفلة: عنا مذاكرة علوم!!

عبثا تستطيع السيدة العودة إلى النوم، يستيقظ جرح الكهرباء، نتداوله كحكاية حاضرة في كل لحظة، تسيل الحكايات، تقول السيدة زوجة الرجل المريض: اضطررنا لتمديد إقامة زوجي في المستشفى رغم أننا نستدين تكاليف الإقامة والاستشفاء فقط من أجل الكهرباء، جهاز ضخ الأوكسجين يحتاج كهرباء متواصلة، ولا قدرة لنا على شراء مولدة أو شراء محروقات لإدارتها، في دعواتنا شبه المكتومة والعاجزة، نرجو الصحة والعافية لزوجها المريض، ترد بتعب: الله يختار الخير! يبدو أن الموت لم يعد مرعبا ابدا، لكنه وفي حياة الفقراء يصير حلا أقل كلفة من رحلة العلاج!

في ساحة الأمويين يفاجئنا ازدحام خانق، يخنقنا الوقت المهدور حتى لو كان مجرد دقائق، تقول إحدى مرافقاتنا بقهر: أف !سأتأخر في العودة، لأن السيدة تحاسبني على الدقيقة، حتى أنني أقلعت عن شرب فنجان القهوة توفيرا للوقت.

يطول انتظارنا، وعيوننا معلقة على ساعات جوالاتنا بقلق وترقب، حادث مروري سرق عشرين دقيقة من وقتنا و أعصابنا وسيغير مواعيد عودتنا لبيوتنا، لم نسأل عن تفاصيل الحادث ولا عن ضحايا محتملين، ولا عن نوع السيارات المتضررة، كل التفاصيل خارج اهتمامنا، رؤوسنا تحدق في الفراغ والقلوب تترقب لحظة إعادة الانطلاق نحو التعب، تعب اسمه الحقيقي شقاء معمم غير محدد المدة ولا الأسباب.

نصل أطراف الحي المنشود، نبدأ بمغادرة الحافلة، بعض السائقين حفظوا المواقف الخاصة بعناوين البيوت التي نقصدها، فيوقفون دون طلب منا، امرأة في المقعد الخلفي تعلم ابنتها أصول العمل، تطالبها بأن تبقى صامتة، وبأن تأكل القليل وبكامل الهدوء إذا ما عرضت عليها صاحبة البيت طعاما، يبدو أنه يومها الأول في العمل، تقول الأم لابنتها: عليك نسيان أنني أعمل في البيت المقابل، لا تذكريني أبدا ولا تطلبي

من سيدة البيت زيارتي ولو لسؤال صغير، عليك أن تعتمدي على نفسك، بعبارة حاسمة تقول الأم لطفلتها التي لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر: إنسي وجودي نهائيا.

تغادر السيدة المرافقة لزوجها المريض في موقف المستشفى، تنسى كيسا صغيرا، نصرخ بالسائق ليتوقف، تهرع إحدانا نحوها لتناولها الكيس، تشكرها السيدة قائلة: الحجي يحب الموز لأنه طري على لثته المتقرحة، وتضيف: رخص الموز، اشتريت له موزتين!

يسأل السائق السيدة صانعة الحلوى عن ثمن قالب كاتو لعيد ميلاد حفيده، "والده مسافر وطلب مني أن أفرح طفله بقالب كاتو" يقول، تعطيه السيدة رقما فلكيا، يصرخ: الله لا يوفقن! شو ها الغلا؟ عم نشتري عجين حلو مو دهب! لا أحد يضحك، لم تعد أرقام السلع وأسعارها مادة للتندر والضحك، لم يعد الضحك سلعة متوفرة أصلا، وإن توفر للحظات نادرة، مسروقة أو عابرة فهو غير قابل للتداول.

أبقى وحيدة حتى الموقف الأخير، يسألني رجل استقل الحافلة حديثا: هل تحتاج العائلة التي تعملين لديها سائقا خاصا؟ يخبرني بأنه يعمل حارسا ليليا لإحدى الشركات الخاصة في هذا الحي، ويبحث عن عمل في نفس المنطقة، يتدخل سائق الحافلة ناصحا، حارس وسائق مباشرة بعد سهر الليل بكامله؟ يجيب الرجل لا أريد العودة إلى المنزل، اعتدت النوم المتقطع، وجسدي لا يطلب نوما، عائلتي تحتاج مالا، والنوم يغيب من كثرة القلق والتفكير!

لا أرد على سؤال الرجل، غمرني القهر وأشعل نار الخيبة في قلبي، كيف عرف الرجل الغريب بأنني غريبة عن الحي؟ وبأنني أعمل في أحد البيوت؟ هل مختوم على جباهنا نوع المهنة وعنوان السكن، يجمعنا الفقر والحاجة تتسع، لكن الوصمة أيضا تتجذر، أغادر الحافلة، يغادرها الرجل الموعود بعمل آخر لدى شركة خاصة أخرى، أسلم قدمي للطريق، أشتهي البكاء ولا أتمكن من الوصول لدمعي، وأنا أصعد درج البناء، ألتقي بالمرافقة الليلية: تخبرني بأنني قد تأخرت خمسة عشر دقيقة كاملة، تقول لي بما يشبه التهديد ولكن بانكسار: إذا خصم مني المعلم قيمة ساعة من العمل سآخذها منك، تغادر نحو عملها النهاري، أفتح باب بيت السيدة المريضة، تصرخ قائلة: أريد طعام فطوري حالا، اجيبها بتحية الصباح، أشعر بتعب يهد جسدي، اصرخ في داخلي تعب نستهل به صباحنا، حياتنا كلها تعب، أصحح لنفسي لا حياة لنا أصلا، نحن رهائن للتعب، أمضي إلى المطبخ أحضر فطور السيدة المريضة، حينها يداهمني البكاء، أتركه يسيل ولا أفكر بكبحه ولا حتى بتجفيفه.

سلوى زكزك